القسم الثالث

obeikan.com

obeikan.com

ثمة اتجاهان في تعريف الإنسان ؛ الإنسان كائن عاقل، الإنسان كائن غريزي.

وكلاهما يفتقد الدقة العلمية ، أو دقة التعبير ، وهنا تكمن ٩٩% من مشاكل البشرية.

في العمليات الجراحية يتم تقدير النجاح بمدى دقة التشخيص ودقة المعالجة ، وأي خطأ مهما كان نزيرًا يقود إلى مضاعفات مرضية وربما إلى الموت. وفي العام الماضي أعلنت إحصائية في دائرة الصحة البريطانية مفادها أن ٧٠% من حالات الموت هم من زبائن المستشفيات. أي أن عدم الدقة أو العناية المفترضة في التشخيص أو الأدوية أو التداخل الجراحي قاد إلى الموت العاجل أو الآجل.

هل يمكن التساهل في عدم دقة الكيمياوي في المختبر ؟... هل يمكن احتمال نقص الدقة في مجال علم الفضاء ومستلزمات المركبات الفضائية؟

إن خطأ بسيطًا قاد إلى احتراق مركبة في الثمانينيات بعد انطلاقها من القاعدة مباشرة... في استخدامات الأسلحة الذكية في الحروب الذكية ذهب الكثير من البشر والخسائر المادية نتيجة عدم دقة الاستخدام والتشخيص والتصويب والرمي. [حادث قصف سفارة الصين في بغداد من قبل الطائرات الأميركية ، وهو ما سبق حصوله في بلغراد ، بسبب خطأ عسكري حسب الزعم]. مثل هذه الحالات تخضع لتعليمات الأمن القومي وتفرض إجراءات صارمة على أسرارها (لماذا تدعى أسرارًا؟)، والإفشاء بها خيانة عظمى عقوبتها التصفية.

لكن عدم الدقة في مجال الخطاب الاجتماعي المتداول يوميًا هو الأكثر شيوعًا وضررًا. فاللغة أحد خصائص الكائن البشري ، ونقصه يشكِّل (آفة) اجتماعية وطبية. لكن سوء استخدام اللغة كمفردات ومعاني لا يشكِّل (آفة) في نظر هؤلاء. أنا اعتقد أن أضرار الاستخدام الخاطئ أفدح من أضرار عدم استخدام

الشيء. والمثل يقول : من لا يعمل لا يخطئ !.

الإنسان ليس كائنًا عاقلاً فحسب، وإنما أرقى الكائنات العاقلة.

وإلى جانب القردة والدلافين وكائنات أخرى، ليس الإنسان منفردًا في حيازته العقل ، وإنما يمتاز بنسبة العقل التي يمتلكها. وأنا أضيف لذلك نسبة ما يستخدمه من عقله ومدى دقة استخدامه الذي يوصف بالذكاء والذكاء الخارق الذي يغيِّر التاريخ والمجتمعات.

أما وصف الإنسان بكائن غريزي فليس ثمة أشنع منه. لأن كلّ ما يتحرك من المخلوقات يعيش بالغريزة. والغريزة نظام حيوي بدائي يؤمن ديمومة الكائن الحي وسلامته ولكنه لا يساعد في التطور.

جميع الحيوانات تنطوي على نظام لتحصيل غذائها، وحماية نفسها من حالات الخطر أو الأماكن الخطرة. وربما هناك غريزة أكثر تطورًا كما لدى النمل الذي يخزن غذاءه ويحفر لنفسه أغوارًا في بطن الأرض.

لكن السؤال هنا، إلى أي حدّ تؤمِّن الغريزة حصول الإنسان على الطعام، أو حمايته من المخاطر، أو تجهيزه بالمسكن والمبيت والحياة الاجتماعية؟.

الإنسان يحتاج لاستخدام عقله لينجح في تحصيل طعامه، وفي تأمين سلامته ومنامه ، وفي تحقيق الشراكة الاجتماعية مع أمثاله. حالات مثل المجاعة والتشرد والخوف هي خاصة بمملكة الإنسان، ودليل فشله في استخدام عقله بشكل يحقق تأمين احتياجاته الأساسية.

كيف يمكن الاستدلال على مدى استخدام الإنسان لعقله، أو عدم استخدامه إياه؟

يمكن الاستدلال على ذلك عبر نمط حياة الفرد، ومظاهر نشاطه الاجتماعي والثقافي، ويمكن تلخيصها بكلمتين : [كلامه وسلوكه].

يقدِّر علماء الانثروبولوجيا عمر أقدم الحواضر البشرية بما لا يزيد عن خمس عشرة ألف سنة ، بحسب المستكشفات الأثرية في جنوب الأناضول. وتتفاوت الحواضر القديمة في أنماط حياتها ومنجزاتها الحضارية. ويعتبر أهل سومر الأرقى عقلاً ومساهمة حضارية في تمدين وإرقاء البشرية من سواهم، يليهم في ذلك أهل بابل والفراعنة ثم الإغريق.

وكانت المنجزات العلمية وأنماط الحياة والتفكير الحديثة تنتقل يومها في أصقاع الأرض ويتم انتشارها وتداولها بطريقة لم يقف العلماء لليوم على تقنياتها. تمَّ العثور في أميركا الجنوبية على مظاهر حياة شبيهة أو مطابقة لما هو في سومر ، وكذلك في مصر واليونان.

لكن المنجز العلمي الحضاري لم يكن بنفس القوة والاضطراد في كل مكان وكل زمان. لقد كانت الحقبة السومرية قصيرة زمنيًا نسبة لأحقاب تاريخية سياسية أو عسكرية.

وإذا حاولنا عقد مقارنة بين حجم النشاط العقلي وحجم النشاط الغريزي في تاريخ البشرية عمومًا أو في مكان جغرافي محدد ، فإن النسبة لن تتجاوز نسبة ١% أو أقل منها ، على مدى عشرة آلاف عام مثلاً.

يمكن تطبيق نفس المقارنة خلال القرن العشرين فقط، أو العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.

ضمن هذه النتائج، ما الذي يجعل المرء جديرًا بنفسه؟... كم من حياة الإنسان مدينة لعقله؟... كم هي مساهمة كل فرد في مكتبة العقل البشري؟.

في الأطروحات الجامعية الحقيقية – عندما كان للجامعة والأطروحة معنى! – كان على الباحث أن يقدِّم فكرة جديدة جديرة لحيازة الدرجة العلمية "الأكاديمية" في النقد الأدبي عند قراءة نص أو تجربة شعرية أو سردية ، يبحث الناقد عن حجم الإضافة والتجديد لكي ينسب النص للإبداع – باعتبار أن الإبداع هو

الإضافة الفكرية -. ولكن هذه الدقة والصرامة الفكرية تهلهلت ، وصارت في حكم التراث والكلاسيك ، لتحل محلها حالة من الثقافة الشعبية والجامعة المفتوحة على الشارع والإعلام. وانتهت مفاهيم النُخبة على الصعيد الأكاديمي والثقافي والسياسي والاجتماعي بل وحتى الديني.

ليس كل أبناء سومر علماء ، ولكن نسبة العلماء بينهم ملحوظة ، وليس كل اليهود علماء ولكن أكثر العلماء المجددين من اليهود. وليس كل الفرنسيين -قبل نصف قرن- مثقفين ، لكن النُخبة الثقافية كانت فاعلة في الحياة الفرنسية.

إذا كان العقل هو ذروة الجسم ، فإن النُخبة هي عقل المجتمع. وفي مصر النصف الأول من القرن العشرين كان للنخبة الثقافية دور مميز ومؤثر ، يأخذ به الحاكم والحكومة والساسة ووسائل التعليم والإعلام ليصل إلى قاع المجتمع.

قسَّم أفلاطون المجتمع إلى طبقات توازي تقسيمات الجسم البشري ، رأس وصدر وأطراف. وكان حلم الإنسان وأمله أن يختزل الإنسان يومًا إلى صدر وعقل ، وأن يختزل ويسمو ليكون عقلاً خالصًا.

أذكر من خضم قراءاتي في السبعينيات كتابًا للمفكر الرائع سلامة موسى ، عن نظرية التطور وأصل الأنواع لدارون -معذرة لنسيان العنوان -. كان يناقش فيه بعض أطروحات النظرية حول مستقبل الإنسان.

على فرض أن استمرار التطور الحضاري المتمثل في نمط معيشة الإنسان وتعليمه وتغير غذائه وعاداته ودخول النظام والتنظيم في حياته ، ستنعكس تدريجيًا على تطور مدارك الإنسان ووعيه وصورته.

وقد تحقق جانب من ذلك على صعيد مدارك الأطفال المولودين حديثًا !!. وكان من مناقشاته التطرق إلى حجم الرأس (الدماغ) وعدد أصابع القدمين والشكل الخارجي للإنسان عمومًا.

رأى سلامة موسى -بحسب تأويلات النظرية - أن الحيوانات التي تتعلق

بالأشجار تتوفر في أقدامها على ظلفين أو ثلاثة، ولكنها تحولت إلى خمسة أصابع لدى الإنسان الذي صار جسمه منتصبًا [Homo- Erectos] لغرض تحقيق أفضل توازن.

وأشار إلى أن أصابع القدمين الخمسة في طريقها للاختزال نتيجة تراجع الحاجة لاستعمالها. وفي طفولتي رأيت لدى أبناء خالي وجود غشاء رقيق يملأ تجاويف ما بين الأصابع، وربطت بين ذاك وبين كلام الكتاب.

وكانت قصص الأطباق الطائرة معروفة. وصدرت كتب عن دار المعرفة الكويتية تتحدث عنها، وفي بعضها وصف لسكان الفضاء: رؤوسهم كبيرة جدًا ولهم ثلاث عيون وأجسامهم صغيرة يبدون مثل الأقزام...

كثير من الناس لا يستعمل أصابع قدميه الخمس، وبشكل عام يعتمد على اثنين. أصابع القدمين تتعرض غالبًا لالتهابات وتقرحات وتحتاج لتنظيف وتهوية مستمرة.

ملاحظات أخرى تتعلق بالجهاز الهضمي وبعض الأجهزة الآخذة بالاختزال أو المختزلة مثل الزائدة الدودية عند الإنسان أو البظر لدى المرأة، ونتوء الذيل في أسفل العمود الفقري عند بعض الولادات غير الطبيعية.

وقبل عامين أجريت عملية هنا لشخص كان يعاني من نتوء ملتهب في نهاية عموده الفقري، يشبه بقايا الذيل الذي لم يعد الكائن البشري يحتاجه للتوازن.

المغزى من ذلك... أنني كنت أؤمن بالتطور ، ليس التطور الحضاري والاجتماعي فحسب، وإنما تطور جسم الإنسان المادي وعقله.

يومها قرأت كُتبًا أخرى عن النظرية النسبية لأينشتاين وفيزياء الوراثة، وجدت فيها أن الإنسان – الكائن الحي – هو ساعة بيولوجية، وأن الإنسان يمكن أن يوقت نفسه كالساعة. هناك من يستغرب كيف يصيح الديك في الفجر في نفس الوقت، أو كيف تنام وتصحو الطيور، وكيف تنظم أوقات طعامها.

مؤخرًا... قرأت كتاب (طفيليات العقل) لـــ"كولن ولسن" الذي يتحدث عن كيفية استخدام طريقة التركيز الذهني للتأثير في ظواهر طبيعية أو حياتية معينة.

هذه القراءات الفيزيائية والبيولوجية، كانت تتكامل عندي مع أفكار فرويد عن [super- ego] والأنا العليا لدى كيركجورد، والذي يقابل الضمير الأخلاقي الأعلى أو (الإله) لدى البعض.

وكانت قراءاتي الفلسفية والعلمية في سباق في هذا المجال، وإيماني بالتطور ومستقبل الإنسان والجنس البشري ينمو ويضطرد.

obeikan.com

في لغة الثقافة

ينبغي أن تحتل اللغة موقعها من الأهمية ودورها في التأسيس والتعامل.

اللغة عند الناس هي تحصيل حاصل، لا يلزمه جهد أو ضنك فكري، وهي إرث سهل وبضاعة مشاعة على قارعة الطريق، بل أن البعض يعتبرها عطية مخلوقة حباها الله لبني البشر، ليميزهم عن سواهم.

لكن اللغة ليست واحدة بين الشعوب، وهي عامل رئيس في التفاوت الحضاري والاجتماعي والسياسي بين قمة السلم البشري وأسفله، بين من يسودون ويحكمون، وبين من يتبارون في الجوع والمظلومية.

اللغة أداة اخترعها البشر، من أجل إدارة عمليات التفكير في مستلزمات الحياة. ومن غير وجود اصطلاحات الأسماء والأفعال وأدوات الربط والوصف، ما كان يمكن للمنظومة الثقافية أن تتشكل. فالعمليات المتصلة بالطعام والبرد والمرض والحب والبحث عن البدائل، كلها قائمة على أساس مشخصاتها اللفظية.

باللغة أمكن تمييز الإنسان عن الحيوان، والكبير عن الصغير، والسليم من المريض، والحسن من السيئ.

واللغة من إنتاج الفكر وإبداعه. تفكير الإنسان كان وما يزال يخترع المسميات ويصف الظواهر والعمليات الوجودية في سبيل التعامل معها وتوجيهها بشكل يخدم الحياة والتطور.

فالتفاوت في اللغة، منبعه التفاوت الفكري بين الأشخاص والجماعات الثقافية. والفكر المتقدم يُنتج لغة متقدمة راقية، يترتب عليها إنتاج مظاهر وأفكار ومؤسسات راقية، تحقق مستوى راقيًا من أنماط الحياة لأهله.

بينما الفكر المتخلف أو الجامد يكون إنتاجه متخلفاً ضعيفًا على صعيد اللغة، مما يترتب عليه أفكار ومنظومات متخلفة عقيمة تقود حياة أهلها نحو الانحطاط. بل أن الانحطاط الفكري لبعض الجماعات، يشكِّل عائقًا على طريق التلاقح الحضاري، ينعكس سلبًا على أوضاع مجتمعاتها وأجيالها اللاحقة.

ما أريد الإشارة إليه هنا هو ضرورة التوقف لدى اللغة، واستبدال النظرة التقليدية التسليمية الاستهلاكية المجانية إليها، بنظرة عقلية إبداعية منتجة، تعيد تأسيس ثقافة اللغة واكتشافها من الداخل.

من الخصائص السلبية للغة العربية أنها لغة تسليمية مطلقة، لغة لا تشجِّع على التفكير والتأمل. لأنها بطبيعتها قائمة على الاستعارة والتقمص من لغات محلية متوارثة من الآرامية المنحدرة بدورها من اللغة البابلية والأكدية الحديثة. فالعربي، العادي أو اللغوي، لا يجهد نفسه لوضع مفردة جديدة، بقدر ما يميل على واحدة من اللغات المحلية القريبة منه ويستعير منها حاجته، على طريقة القنص البدائية المتوارثة عُرفيًا.

ولتوضيح أهمية الابتكار والجهد الفكري، يفضل المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة الإغريقية الأقدم منها، بين اللغة الإنجليزية واللغة الجيرمانية الأقدم منها. وعلى ضوء المقارنة واختلاف الخصائص والتفاوت الحضاري، اختلف العطاء الثقافي للإغريق عن الرومان، كما اختلف العطاء الثقافي للألمان عن الإنجليز.

ومن هذا الواقع يمكن تأشير ضحالة المنتج الثقافي الأمريكي بأصوله الإنجليزية لنصل إلى التشابه والقرابة بين الطابع العسكري لكل من الإمبراطورية الرومانية والدولة الأمريكية.

ثم نستنتج من كل ما سبق أسباب النزعة العسكرية في مجتمعات الشرق الأوسط عامة، عربًا وكُردًا وتُركًا وفُرسًا، بالربط مع الطبيعة البنيوية للغاتها المجانية المستعارة من بعضها، والخالية من الجهد الفكري المنتج.

فهم طبيعة اللغة مفتاح فهم الشخصية الاجتماعية في جماعة اللغة. حيث تشكِّل الاستعارة والقنص مبدأ حياتيًا عامًا يسود كل قطاعات الحياة ومظاهرها إلى جانب الاجتماع والدين. فالعادات الاجتماعية المتوارثة بين البيئات المتجاورة لغرب آسيا، يصطلح عليها بالتقليد.

وهو ما ينطبق على قطاع الدين متمثلاً بطبعات مستنسخة باليد عن بعضها، حافلة بمظاهر التصحيف والشطب والتعديل، ناهيك عن كثرة الأيادي المتداخلة في النسخ، مما أنتج عقائد زادت من تشويه الشخصية الاجتماعية ناهيك عن ارتهانها بالعنف والعسف لإخماد نزعات التمرد والأناركية الشائعة في بيئة عقمت مظاهر التحضر والتمدن.

فعقلية التسليم والمشاعية الثقافية، تجد في التعويل على الغيب الديني ومركزية التقاليد الاجتماعية المضاهية للقداسة، تعويضًا عن العجز والإفلاس الحضاري، وامتناع المساهمة الثقافية في الدائرة الإنسانية.

وبالزيادة عن خصائص الكبرياء والفخر بالذات، تعتز ثقافات الشرق الأوسط على مجتمعات الغرب المعنية بالإنتاج الحضاري وتأسيس المدنيات، بضعف التقاليد الاجتماعية والدينية لدى الأخيرة.

واقع الحال، أن الظواهر الاجتماعية والعقائد الفكرية تشكِّل مطيات ونتائج للحالة الحضارية والنظام الاقتصادي المادي. فالإشباع المادي والنفسي في المجتمع المتطور يتم من خلال الإنتاج والعمل المادي والجهد الفكري، وهو ما يؤمِّن استمرار عجلة الحياة والتطور والسعادة في آن. بينما يعول غيرها على الغيب الديني والتقليد الاجتماعي على بلوغ قناعات اجتماعية تسليمية بالمقابل.

وهنا يخطر سؤال عمَّا يمكن عمله، أو المطلوب القيام به، وهل يمكن اليوم تغيير أدواتنا اللغوية وأرضية القناعات الاجتماعية والغيبية المتحكمة بحياة الشرق؟.

ما يلزمنا التفكر به والسعي لتغيير أُسس وأساليب معاملتنا فيه هو اللغة أولاً. إن مرد طامة الواقع العربي هو جيوش اللغويين والفقهاء ممن أحالوا اللغة والنص إلى هيكل مقدس يُلزمون الجميع بالدوران حوله والتبخير له، وترديد آيات التبجيل والتقديس والفخر، واعتبار أنه لولا اللغة لضاع الدين، ولولا الدين لضاعت اللغة، ثم التبس الأمر عن أي واقع ونتائج يتم التهويس، وما ثمار تلك وهاته، ونحن نُساد ولا نسود، ونُقاد ولا نقود، ولولا فضلات الأعداء لمتنا وانقرضنا منذ حين.

اللغة ليست أقنومًا مقدسًا، ولا علمًا جامدًا، وإنما هي كائن حي، له نصيبه من التطور والتغير وخصائص الاكتساب والفقدان والنمو.

والواقع... أن اللغة الإنجليزية، لولا انتهاجها سُنن التطور والنمو والتغير لما أتيح لها أن تكون لغة عالمية. لكن اللغة الإنجليزية قبل سبعة قرون اختلفت عما كان قبل خمسة قرون، وثلاثة وقرن.

واللغات الأوربية عمومًا ، تجدِّد نفسها وتعيد إنتاجها كل قرن من الزمان، مجددة في المعاجم والدراسات اللغوية. ولا تشكِّل اللغة الأوربية مقدسًا أو إرثًا جامدًا. ومن وقت لآخر يعاد إنتاج وطبع مسرحيات شكسبير وما يضاهيها من رموز التراث بلغة عصرية تستجيب لمتطلبات التطور والتغير. وليس لهم قانون ابن سينا ولا عروض الفراهيدي ولا ألفية ابن مالك. ولا ترتبط اللغة لديهم بالعقيدة الدينية أو الأيديولوجية الحزبية أو هوية الحكومة كالتعريب والتتريك والتكريد والتفريس في بلداننا.

نحن بحاجة لاستعادة الدرس الفلسفي المفتوح في مناهجنا، وبناء الدراسات المنهجية والحياتية على أرضية المنطق والاستنباط الفلسفي، وفي أولها اللغة. فاللغة، -كما سبق- هي مقود عملياتي التفكر والإنتاج الثقافي والمادي. وبهاته الوسيلة، نتيح لأجيالنا المقبلة، اللحاق بعجلة التطور والمساهمة الحضارية.

الإنتاجية والثقافة

في البدء كانت الحضارة...

والحضارة هي التحول من التعامل المباشر / المجرد مع الطبيعة وظواهرها ، إلى الاعتماد على الإنتاج والتصنيع والتطوير المستمر لأنماط الحياة ومفاهيمها.

الحضارة هي أسلوب التعامل وأنماط التداول وطُرز التنظيم والإدارة.

أول دالة على الحضارة كانت اليد والأصابع التي تتفنن في تنويع أساليب الاتصال بالطبيعة وتطويرها وتطويعها لتحقيق فائدة ونكهة أفضل من المعتاد.

بدأت الحضارة عند أول استخدام للحجر لتوليد النار ، ثم استخدامه لصنع أركان الموقد ، وتقطيعه لصناعة آلات حادة للقطع أو الطعن ، وصولاً إلى تجفيف البذور وزراعتها وتخزين الثمار ، والإفادة من الأغصان في صناعة الكهوف والقوارب والحصران... إلخ.

وكان لابد للحرف اليدوية من مستوى إبداعي لائق من أنماط التفكير.

في اختبار ذكاء نوع من الطيور ؛ تمَّ وضع بذور في داخل قفص زجاجي له فتحة صغيرة لا تكفي لدخول رأس الطائر ، حاول الأخير مختلف الطرق للوصول للحبوب ، بما فيها محاولة كسر القفص وقلبه ، ولكنه لم ينجح ، ولم ييأس... بعد حين أحضر عودًا رفيعًا ، وبدأ يستخدم العود بحرص لتقريب الحبوب من فتحة القفص والتقاطها بمنقاره، فعل ذلك مع كل حبة من الحبوب ، ولم يترك واحدة منها.

إن عديد الحيوانات تعتمد طرق ذهنية ذكية في تحصيل طعامها ، أو ترتيب أعشاشها وكهوفها ، مستخدمة أعضاء جسمها القابلة للحركة لتحسين نمط حياتها. ولو كان للحيوان يد وأصابع دقيقة وعديدة مثل الإنسان ، لاختلفت صورة الحيوان وتعريفه اليوم. لكن الحيوان ما يزال يعتمد على نفسه في تلبية

احتياجاته، ولم يتطور النظام الاجتماعي والاقتصادي لديه بما يتيح لجماعة أن تعتاش على جهد غيرها كما هو لدى البشر.

الاعتماد على الذات في تلبية الاحتياجات، ساعد في تقليل نسبة الكذب والخبث والنهب لدى الحيوان عمومًا. بينما رصد الخبراء اتسام بعض أنواع القردة بالخُبث والغدر والسرقة والكذب في أساليب تعاملها مع أمثالها. وهي صفة آخذة في الانتشار بين الحيوانات البيتية والمدجنة في الحدائق.

هذا يعني أن نسبة السوء أو الشر، تنمو كلما قلَّ اعتماد الفرد على نفسه في تلبية احتياجاته. ويعتبر الإنسان الموصوف بالتطور والرقي الجسدي -فسلجة الأعضاء- أكثر كائن إتكالي يسوغ الإتكالية والقرصنة والتمادي في تحقيق احتياجاته ونزعاته النفسية، إلى درجة الاعتداء على الآخر وقتله للسيطرة على ما بحوزته.

هذا السلوك الفردي الشائن/الوحشي، تحول بفضل التنظيم الجماعي إلى سلوك عام لجماعات وأقوام على مدى التاريخ. باعتماد الاعتداء والسلب والنهب والهجرة والسيطرة على أموال وأراضي وبيوت الغير لتأمين حاجاتها الغذائية والاجتماعية بجهوزية واستسهال.

بل أن هذه الجماعات الإتكالية الخاملة حضاريًا ، هي الأكثر كثافة سكانية، مثل الشعوب الأسيوية التي ولدت أكبر الهجرات السكانية عبر الزمن وانتشرت في أطراف الأرض. ومن أشهرها الهجرات الهندو-أوربية والمغولية، والهجرات الأخيرة الشرق أوسطية نحو الغرب.

بالمقابل، يمثِّل الشعب الصيني اليوم أحد أكثر الشعوب إنتاجية واعتمادًا على الإنتاج الحرفي اليدوي والصناعي، وتحتل المنتجات الصينية المتسمة بالجودة والرخص والبُعد عن المضاربة والسمسرة.

الجماعات الحرفية اليدوية ، أكثر ميلاً للإدارة والتنظيم ، والأكثر نجاحًا في حياتها السياسية والعامة ، وتعتبر الصين وإيران (•) في مقدمة الشعوب المميزة تاريخيًا في المحافظة على كيانها الاقتصادي والسياسي ، والأقدر على المواجهة والصمود في وجه السياسة والتحديات الدولية. خلاف ذلك هي الشعوب والمجتمعات غير المنتجة ، والمعتمدة على الغير في تلبية احتياجاتها المعيشية والثقافية والاقتصادية.

إن مفاهيم الغزو والقرصنة والتبرير الديني ، هي مظاهر تكميلية- تعليلية لتسويغ عجزها الحضاري عن الإنتاج وتحقيق استقلالها الاقتصادي والسياسي دون معونة ووصاية من القوى العالمية.

ومن غير تحول جذري في العقلية الفردية والاجتماعية لمجتمعات العيالة ، رغم تأخر الوقت وحراجة الوضع العالمي ، فلا أمل لأبناء تلك المجتمعات وثقافاتها في الاستمرار ، أو اكتساب مكانة لائقة فوق الأرض.

والأخطر منه اليوم ، في ظل صراع الثقافات والهويات والمرجعيات الحضارية والاقتصادية والفكرية ، أن اقتصاديات الإنتاج الكبير ، لا تعيش بغير أسواق استهلاكية عالمية لتصريف منتجاتها ، وبالتالي تدوير عجلة الإنتاج الاقتصادي وتحقيق النمو والتراكم الاقتصادي.

• تمثِّل القرية الصينية أو الإيرانية ، أصغر وحدة إنتاجية زراعية أو حرفية ، يشترك كل أفرادها في العمل والاستثمار خدمة المنتج الذي هو رأسمال وعماد حياة القرية. بينما تقوم الدولة (في الصين) ، أو المُلاك / وكيل تجاري بجمع الإنتاج من القرى، وشرائه من الأهالي بأسعار هي أجور متفق عليها مسبقا ولأجل طويل ، ثم يقوم التاجر بتسويق المنتج في البازار الرئيسي – مدينة آزادي / شمالي طهران العاصمة-، ومنها نحو الخارج. وتتمتع القرى الإنتاجية والبازار باستقلالية ذاتية عن التوترات والتغيرات السياسية في البلاد والعالم ، مما يقلل من تأثير التوترات الخارجية السياسية والاقتصادية على الداخل الإيراني ، ويجعلها في منأى عن فوضى الشرق الأوسط والتدخلات الدولية فيها. ويذكر أن مصر الفرعونية ، كانت تعتمد مبدأ الوحدات الاجتماعية الاقتصادية ، وتشكل القرية المصرية ، منظومة إنتاجية زراعية أو حرفية أو صناعية وسيطة ، تتولى الحكومة ووكلاؤها التجاريون جمع وتسويق الإنتاج داخليًا وخارجيًا. لكن الاحتلال الأجنبي دمر التنظيم الإداري والاقتصادي الذي كفل لمصر مستوى لائقًا من الاستقلالية والاكتفاء الذاتي وتصدر الحياة الاقتصادية والاستقرار الإقليمي عشرات القرون.

إن الإنتاج الاقتصادي يعتمد بين أدوات كثيرة، على عنصر الأيدي العاملة الرخيصة المتيسرة في الصين مثلا. بينما دفعت التطورات الفكرية والمدنية في الغرب الأوربي إلى تغيير أنماط الحياة الحضارية والمدنية ورفع درجة الاستحقاقات والمتطلبات الاجتماعية والمالية، بشكل أسفر عن تراجع مساحة ومفهوم العمل والطبقة العاملة. وبالتالي تراجع عجلة الإنتاج الاقتصادي والصناعي لصالح الاقتصادات التجارية والمضاربات المالية التي جعلت البنوك تتصدر الدولة والمجتمع والاقتصاد، وتتحكم بالسياسات المالية والعملة الوطنية والعالمية.

وفي عالم اليوم... تعتمد كثير من الدول على السياسات المالية والمضاربات التجارية، عمادًا لحياتها السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ومن واقع هذا التطور السلبي في حضارة الغرب، ظهرت مؤسسة البنك الدولي، بمثابة بنك مركزي عالمي يتحكم بالاقتصاد العالمي، عبر سياسات متداخلة من الإقراض والفائدة وعمولة التأخير التي تنهش اليوم في أجساد معظم بلدان العالم العاجزة عن الاعتماد على نفسها، وضبط احتياجاتها الاقتصادية ومعدلات إنفاقها الاجتماعي والعسكري غير المبررة غالبًا.

وفي نفس الوقت، ظهرت مؤسسة النقد الدولي، للإشراف والتحكم في السياسات المالية والاقتصادية وحماية الدولار الأمريكي من المضاربة والتذبذب، ومتابعة حقوق الغرب الرأسمالي المانح، في أعناق البلدان الممنوحة والمستلمة للمساعدات والقروض، وحفظها في الفلك / (الفك) الأمريكي، وخدمة السياسة الأمريكية العالمية.

فالعالم اليوم ينقسم إلى خنادق ثلاثة: اقتصاديات سلعية منتجة [الصين واليابان وألمانيا وتشيكيا] ؛ اقتصاديات مالية وبنوك تمويلة مقرضة [الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي] ؛ مجتمعات استهلاكية مستلمة للقروض ومستوردة لحاجاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية [بلدان عربية وإسلامية وأفريقية].

الحضارة والحداثة

الحداثة اصطلاحًا تقابل التقليد.

ولمَّا كان التقليد هو القديم المتوارث عبر الأجيال حتى غلبه الجمود والتأكسد ، الحداثة هي التجديد والتطوير ونفحة العصر [Modernism].

فالحداثة هي تحديث الأنماط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الموجهة لحركة الحياة. هي تحديث الزراعة والصناعة ومبادئ العلاقات والمؤسسات الاجتماعية والسياسية في المجتمع.

فما بين القرون الأولى والمتأخرة من الألفية الثانية ، خيمت على الشرق والغرب فترة خمول وفراغ حضاري وثقافي ، ساد خلالهما الفكر الديني الإقطاعي ، الكنسي في الغرب (بيزنطة) ؛ والمذهبية الإسلامية في الشرق (آل عثمان وفارس). جمدت خلالها أنماط الفكر والإنتاج والاجتماع ، واستهلكت البشرية نفسها في صراعات مذهبية وحروب خارجية عقيمة.

وكان لا بد للطبقة المثقفة والنُخب المتميزة من التمرد على الجمود ، والثورة على الإقطاع الدين–سياسي والدعوة للتجديد والتغيير والتطور بما ينسجم مع روح العصر ومتطلبات الحياة والفكر الجديدة.

تلك المبادرات والدعوات الرائدة ، لقيت القمع والترهيب والتهميش والتسفيه والتصفية التي لم تنجح في قمع إرادة الحياة وروح التطور ، فكانت معاقل الإقطاع الكنسي في الغرب الشرارة الأولى للثورة ، على يد الألماني مارتن لوثر(١٥١٧م) ، لتفتح باب ثورة الفكر والحضارة الجديدة من خلال كوبرنيكوس وديكارت وايمانويل كانت وجون لوك وداروين ونيوتن وروسو وهيجل وماركس وانشتاين وغيرهم من آباء ثورة التنوير والحداثة (الحضارة الثانية) التي أنتجت أسس المجتمع المدني السياسي الحديث والثورة الاقتصادية

الاجتماعية وحملة التنوير والإشراق التي مدَّت إشعاعها في أطراف الأرض وساهمت في إنتاج الخريطة السياسية والثقافية للقرنين التاسع عشر والعشرين.

استغرقت ثورة الحداثة حوالي ثلاثة قرون من عمر الغرب الأوربي، لتغيير صورة الحياة وتعريف الإنسان ومفاهيمه الثقافية، لكن معدلات وصول اشعاعات الحداثة، وطريقة ومستوى تعاطيها من قبل مجتمعات الأرض، اختلفت من بلدٍ لآخر، وبشكل أسفر عن جُملة التفاوت الحضاري والثقافي في المجتمع العالمي.

ومع مركزية البؤرة الحضارية للحداثة الأوربية، صاحبة امتياز التطور وتجديده المستمر، تفاوتت مستويات تعاطي التطور والتخلف خارج أوربا.

فصفة التخلف أو دون معدل النمو، أو النامية في طريق التقدم، ليست حكمًا خارجيًا استعماريًا كما يوصف، بقدر ما هو وصف لطبيعة ومستوى تعاطي المجتمع المحلي مع السلعة الحضارية شبه الجاهزة.

والغريب، أن المجتمعات المتخلفة عمومًا، تلقفت مفاهيم الحزبية والأُطر السياسية والعسكرية ومفاهيمها، بل الثقافية والأدبية والتعليمية عمومًا، وقصرت في مجال الثورة الإنتاجية في الزراعة والصناعات الحرفية والتصنيع الغذائي.

المعروف أن الثورة والتنمية الثقافية هي جانب من الثورة والتنمية الاجتماعية، التي هي بدورها تحصيل حاصل، ونتيجة مترتبة للثورة والتنمية الاقتصادية بقطاعاتها المختلفة. لكن الصورة معكوسة تمامًا فيما يسمى اليوم بالمجتمعات والبلدان النامية والعالم الثالث. حيث يجري تعاطي الحداثة الثقافية والكثير من مظاهر الحداثة الاجتماعية السطحية والثانوية، ويغيب الجوهر الإنتاجي الاقتصادي.

البحث عن السبب؟...

عربيًا، وفي حدود الشرق الأوسط، يكمن الجواب في عمق البيئة الشرقية المتوسطية، التي استهلكتها العبوديات والقوى العسكرية، ودمرت - بالتدرج التاريخي - قيم العمل والإنتاجية والتكفل الذاتي.

فمند الألف الأولى قبل الميلاد صارت المنطقة مسرحًا لغزوات قبلية وعسكرية متعاقبة، بحيث تبتلع إحداها الأخرى، طمعًا في موارد البلاد المجاورة، وفائضها الإنتاجي وأنماط الحياة المتقدمة فيها.

لقد صنعت الغزوات طبقات من السادة والحكام والإقطاع الجدد، بينما تحول السكان الأصليون إلى مجرد عبيد للأرض وموالي، في خدمة حاجات الإقطاع وتمويل حملاتهم العسكرية.

فبالإضافة إلى سياسات القمع والعسف والحرمان، لعبت عوامل الهجرة والنفور من الأرض والعمل، والانخراط المتزايد في دين الحاكم وجيشه، دورًا في تجفيف عقلية الإنتاج والانتماء للأرض. فما من أثر لسكان سومر اليوم، إلى حد أن أحد المؤرخين البولونيين يشك في حقيقة وجودهم !. وأين هم البابليون الأوائل والأواخر، وأين هي مكانة الكلدان والآشوريين في عراق اليوم، بل في عراق الأمس عقب انقراض ممالكهم في منتصف الألف الأول قبل الميلاد.

وهل انقراض الحكم مبرر لتصفية وتدمير شعب المملكة أو طبقة الحكم السابق، كما جرى ويجري في العراق المعاصر مند سقوط الملكية حتى اليوم. حيث تقوم كل طبقة حاكمة جديدة بتصفية سابقتها، حتى يأتي الدور عليها. والخاسر الأول والوحيد هو الشعب ومفاهيم الوطنية والانتماء والإنتاجية.

في عراق اليوم، كما في بلدان مجاورة له، يلجأ كثير من أرباب النفوذ والمال إلى تأمين أموالهم ومصادر عيش بديل لهم في بلدان خارجية تحسبًا لانقلاب الظروف. وفي ظل هذه الممارسات الانتهازية والتدميرية والقرصنة اللا أخلاقية

لا يوجد مواطن ساذج أو أبله، يرضى لنفسه أن يبقى عبدًا للأرض، ومطية لصاحب الحكم، يعبر على جثته وقوته، الوافد والغادي، وهو يرجع للخلف، مند ثلاثة آلاف عام.

حياة المجتمعات مثل حياة الأفراد، وعلى مدى رغبة الشخص وقابليته في التعلم والتجويد تتحدد شخصيته العامة وكفاءته العملية ومستواه الثقافي والعلمي.

وكذلك الشعوب وسعيها للتعلم والتطور وتطوير إمكانياتها وتقنياتها الحياتية والإنتاجية. في الإنجليزية يجري استخدام مصطلح [lifeskills]، الذي يحتاجه كل شخص، ويتميز به كهوية شخصية في وجوده.

الموقف من الحداثة أو الحضارة عمومًا، يرتبط بالموقف من التطور، والتطور هو عكس الجمود، ونقيض التخلف. التخلف ليس الجمود، وإنما هو مقابل التطور في اتجاه معكوس. التطور منطقيًا يتجه للأمام، والتخلف منطقيًا ينحدر للخلف، أما الجمود فهو السكون، أي انعدام الحركة، وانعدام هو عدمية الحياة، أو الدوران حول حجر جامد.

من هنا يظهر أن الشخص، والمجتمع، هو المسؤول عن رسم صورته وهويته ومكانته الإنتاجية أو الاستهلاكية، التقدمية أو الرجعية، بحسب نظرته وطريقة تعاطيه مع حياته.

إذا اجتمعت علامتا (−) في عملية حسابية واحدة فالنتيجة تكون (+).
أي أن حاصل عمليتين سلبيتين يكون نتيجة إيجابية.
وفي المنطق الفلسفي يقال : نفي النفي إثبات.

هذه المفارقة الرياضية والفلسفية وجدت رواجًا في كثير من مجالات الحياة والأبحاث بغير التروي أو تمحيص الأسس. فقد تحولت إلى قاعدة فقهية في القرارات القضائية وتفسير الاشكالات الاجتماعية، وأخيرًا... تحولت إلى مبدأ من مبادئ السياسة الدولية وسيما في حل الأزمات المستعصية.

إن أحد مفاهيم الفرضية يمكن صياغتها بالقول إن حاصل اجتماع سلبيتين يكون إيجابيًا. فإذا كانت ثمة مشكلة في مكان وزمان معين، نقوم باصطناع مشكلة نظيرًا لها، وعندها تقوم كل مشكلة بمعالجة الأخرى وتوفير ضررها عن الآخرين !.

وجود قوة شريرة في مكان ما، يقتضي توليد قوة شريرة مضاهية لها بالمقابل، فتتكفل كل منهما بالقضاء على غريمتها وبالنتيجة تأمين القوى الأخرى من أضرارها.

وفي عالم اليوم، عالم ما بعد الحداثة أو العولمة والإنترنت وأحادية القطبية، تفاقمت المشاكل والكوارث والأزمات بشكل يفوق منطق الطبيعة. وكأن بابًا من أبواب جهنم أو أكثر قد فتحت على مصاريعها.

ورغم أن صور المشاكل وأسبابها الأثينية أو الدينية أو الاقتصادية أو السياسية قديمة الأصول، وجزء من طبيعتها، غالبًا ، فقد تفجرت اليوم كظاهرة جديدة. إنه ربيع المشاكل وازدهار الخلافات العقيمة والموروثة. وكأن سيد العالم الجديد، أراد مرة واحدة، وبضربة قلم، أن يحل كل المشاكل والأزمات في

العالم، وذلك بتفجير أسبابها مرة واحدة، ووضع البشر في مواجهة حلها، أو الانقراض بسببها وفي خضمها.

وعند تحديد جغرافيا المشاكل والأزمات المستعصية، نجد أن مناطقها تتوفر على أحد المواصفات التالية :

- الجهل والتخلف
- ثقافات قبلية أو دينية.
- قوى سياسية راديكالية
- حركات تدعو للتحرر والاستقلال
- اتجاهات وطنية بعيدة عن المحور الغربي السائد
- من بقايا العالم الثالث أو الثاني ومن دول عدم الانحياز أو منظومة الكوميكون
- تتوفر على موارد اقتصادية استراتيجية أو موقع جغرافي استراتيجي في العالم. بعبارة أخرى، أنها جزء من دائرة الأطماع الاستعمارية والإمبريالية مما يجعلها جزءًا من جغرافيا الأمن القومي الأميركي، كما ورد في توصيف العراق مثلاً.

إن مشروع الهيمنة الدولية المطلقة قديم، قِدم السياسة ومركزية الأطماع في الطبيعة البشرية. ولعل أول إمبراطورية عرفها العالم على يد سرجون الأكدي، زرعت تلك البذرة التي استعارها الفكر الديني الابراهيمي، وترجمتها فكرة المسيح العبراني أو الإنجيلي ورديفتها الإسلامية (المهدي المنتظر).

وبعد محاولة فاشلة لاستعادتها على يد الإسكندر المقدوني، ظلت الشغل الشاغل لعديد أباطرة روما وبيزنطة، لتوحيد العالم تحت قيادة رجل واحد وديانة ودولة واحدة، ولكنها استنزفتهم جميعًا ولم تتحقق، ووقف العرب من بعدهم على مشارفها، وقصروا عنها.

وفي العصر الحديث، ظهرت منظومات الفرانكفونية والكومنولث والكوميكون والثقافات الاشتراكية والرأسمالية، كأوعية إمبراطورية سياسية (و) ثقافية لتقسيم

وتصنيف البلدان والشعوب واحتوائها تحت قيادة مركزية. وفي إطارها ظهرت فكرة مجموعة عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ ١٩٥٥م.

ومع استفراد الولايات المتحدة الأميركية بزعامة المعسكر الرأسمالي أولاً، ثم العالمي عقب انهيار المعسكر الاشتراكي ١٩٨٩م، أصبحت كل دول المنظومة الاشتراكية وعدم الانحياز السابقة أهدافًا سياسية واقتصادية وثقافية للترويض والاحتواء الجديد.

الولايات المتحدة الأميركية دولة رائدة في تضمين ميثاق منظمة الأمم المتحدة مبادئ حرية الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، واليوم... تستعيد تلك الريادة في مصادرة حق الشعوب في تقرير مصيرها.

•

هنا أيضًا نجد ميوعة المبادئ والشعارات التي يجري تداولها من حين لآخر، دون إدراك وظيفتها التكتيكية والظرفية. فهي تأتي لخدمة ظرف معين وجهة معينة، تتوارى خلفها.

وعندما طُرحت مبادئ ولسن الشهيرة عقب الحرب العالمية الثانية، كانت الغاية المضمرة تحجيم النفوذ السوفيتي والشيوعي في العالم، ناهيك عن وضع نهاية للنفوذ الاستعماري القديم البريطاني والفرنسي وغيرها.

في كل جزء ومظهر من الطبيعة نجد الكائنات المتباينة في الحجم والشكل والقوة والذكاء والمنفعة، وهو ما ينطبق على عالم الإنسان والاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع.

ولم تظهر مقولة: (الأسماك الكبيرة تأكل الأسماك الصغيرة) إلا في عقول بعض البشر من ضحايا نزعة الطمع والغيرة المرضية. فالأسماك الصغيرة والملونة والحشرات الدقيقة تملأ البحار والهواء، ولم تنقرض... لكن الديناصورات انقرضت !.

الفلسفة التبسيطية

تغيرتُ تمامًا عندما تغيرتْ نظرتي للحياة والوجود ، والفضل يعود لاكتشافي الفلسفة التبسيطية، كان ذلك في بداية عقدي الثاني.

قبلها كنت أقرأ وفي داخلي سؤال عن جدوى الفلسفة. في داخلي ثمة إيمان غامض مجهول ، يرى في الفلسفة أرقى مستويات التفكير البشري ، ولكني لم أعرف جدوى الفلسفة ، وكيفية الاستفادة منها في الحياة اليومية. فالفلسفة مثل أي شيء آخر ، ليست مجرد مادة للجدل والتنابز العقيم.

إننا نعيش في عالم من الظواهر والمنظومات والتشكيلات الكلية ، دول ومؤسسات وحروب وصراعات لا أول لها ولا آخر ، وكل مشكلة في جانب منها تتناسل في سلسلة مشاكل تزداد تعقيدًا وغموضًا ومتاهة ، حتى تبدو بلا حل.

لكن النظر من الخارج والانزلاق على السطوح لا يقود إلى فهم حقائق الأمور ، وبانعدام الفهم يستحيل الحل. فالحقيقة ليست معقدة في ذاتها ، الحقيقة ليست غامضة ، الحقيقة مجردة. أما الشكل والظاهرة والمنظر العام فهو غامض ، لأنه يخفي الحقيقة ويلعب الزمن والإنسان دورًا في تراكم الغبار والأصباغ والالتواءات على سطح الظاهرة، فيضيع الحابل في النابل.

الحل يكمن في الكيمياء التحليلية. تجزئة الأجسام إلى مركبات ، والمركبات إلى جزيئات ، والجزيء إلى ذرات ، والذرات إلى نويات ، والنويات إلى بروتونات ونيوترونات ، لنقف على جوهر الوجود.

عندما يعالج الطبيب حالة مرضية معينة ، فهو لا ينظر إلى أعراض المرض الخارجية في حد ذاتها ، وإنما يعتبرها مدخلاً وعلامة على وجود خلل داخلي. فالعقاقير والأدوية تتناول الإنزيمات والخلايا الداخلية لأعضاء الجسم الداخلية ،

التي يؤدي اضطراب عملها ونسب مكوناتها إلى ظهور عوارض المرض الخارجية.

المرض داخلي، والحل يجب أن يبدأ من الداخل. هذا دور الطبيب الحقيقي، الناجح.

عامل الميكانيكا ومصلح الساعات، يهتم بآليات ماكينة السيارة، وإلكترونيات الساعة الدقيقة. والخلل الحقيقي يكمن في جزء تفصيلي من الجهاز الداخلي، أو علاقة التماس بين جزأين منها.

بالتأكيد ثمة مصلحون غشاشون أو نصابون، يقومون بحلول ترقيعية شكلية تجعل صاحب المشكلة زبونًا دائمًا، وبالتالي يحقق لهم ديمومة من المكاسب. وهذا ينطبق على الطبيب التاجر، والسياسي التاجر المنافق، ومعظم العاملين في مجالات الشأن العام.

فالصدق والإخلاص والمسؤولية عُملة في طريقها للانقراض.

يقال في المثل الشعبي: إن المشكلة إذا خرجت من محيطها، استحال حلها... والمشكلة العائلية عند دخول طرف ثالث ورابع وعاشر تنتهي إلى كارثة. والسر إذا تحول إلى كلمة ووصلت الأذن، سوف يشيع في المجتمع.

وهذه وظيفة مواقع الاتصال الاجتماعي وسيولة الإعلام المجاني. هذا ما يجعل العالم يعيش في إخطبوط سرطانات متناسلة وإشكاليات عقيمة تنشر الصداع والإحباط وتنتج طبقات من الانتهازيين الطفيليين المستفيدين من المتاجرة والمزايدة بجراح الآخرين ومآسيهم. فيزداد حجم الفقراء والمعوزين والمحبطين والقتلى والمنتحرين ونسبة الأمراض النفسية والعقلية والبيولوجية، يقابلهم موجات جديدة من التجار والمترفين والطفيليين المنتفخين بدماء الضحايا وحسني النوايا والسذج والضعفاء.

عالم اليوم هو بكلمة واحدة ، عالم أغنياء وعالم فقراء ، عالم أقوياء وعالم ضعفاء ، عالم تنانين وديناصورات وعالم حشرات يداس عليها بالأقدام. عالم البنوك الدولية والشركات العابرة للقارات. مقابل بلايين البشر ممن لا يكادون يحظون بلقمة نظيفة أو سكن حميم أو شارع آمن أو نقطة كرامة. والسبب في كل ذلك، هو منطق المتاجرة والمراوغة والهروب من الواقع وتدليس الحقائق.

أي مشكلة صحية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو دولية، إذا تمَّ تحليلها إلى خيوطها الرئيسة بصدق وإخلاص ونزاهة ، فسوف يتم القضاء على كل المشاكل في العالم.

من وجوه تعقيد ومَشكلة عالم اليوم ، تفكيك الوحدات الاجتماعية والمجتمعية البسيطة والمحلية وربطها بالإخطبوط العالمي. فالعملة المحلية ليست مستقلة كعملة وطنية. والسياسة المحلية ليست مستقلة كسياسة وطنية عن السياسات والتدخلات الإقليمية والدولية.

ولا وجود اليوم لمعظم البنود والمواثيق الدولية التي قامت عليها منظمات الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الإنسانية التي وقعت ضحية الإخطبوط العالمي وانحرفت عن مسارها وتعمل بجنون عكس إدعاءاتها الإعلامية ، ونصوص قانونها ونظامها الأساسي.

فأين هو اليوم حق تقرير المصير واحترام حق الشعوب في اختيار طريقها ، وما هو تطبيق مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى ، في السياسات الدولية والإقليمية اليوم التي تنشب كل دولة أظافرها في جلد وقلب دول أخرى تكالبت عليها نوائب الزمن وجعل منها فرائس إقليمية ودولية.

إن المبدأ الذي يحكم بشرية اليوم بجملة واحدة هو : من لم يكن ذئبًا ، أكلته الذئاب. ولذلك تحاول حتى الفئران أن تستذئب وتستأسد وتزرع لها أنيابًا صناعية في السيرك العالمي.

لا غرو أن الفلسفة غريبة ومستنكرة اليوم ، كثيرون يستهجنونها ويسفهونها ضمن منظور أشمل لحرف العقل البشري عن التفكير السليم أو التجرؤ على لمس جرح الحقيقة.

عاملان يتحكمان اليوم في الواقع العالمي : الإعلام والعنف ، إخطبوط إعلامي وإخطبوط عنفي همجي.

وظيفة الإعلام تزويق العنف وتسويغ مبرراته بشعارات ديماغوجية برَّاقة وتسويقه باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان من بلد لآخر ، ومن قرية إلى قرية ، ولا تهم الأسباب ، دينية أو اقتصادية أو اجتماعية. المهم ما تستحلبه من أموال دم وتدمير بلدان ومجتمعات وسوقها أسيرة في سوح العبيد العالمي. الإمبراطورية لا تكون إمبراطورية بغير حروب وهزائم وعبيد ، وافتراس السمك الكبير للأسماك الصغيرة.

ما الذي يمنع المجتمعات المحلية من الالتفات لنفسها وتنظيم أمورها وحل مشاكلها دون أن تسمح بالتدخلات الخارجية من جيران وما يسمى قوى ومنظمات دولية بعدما انكشفت غاياتها وأساليبها وتواطؤها مع إمبراطورية الشر ؟.

لماذا لا يجتمع بلدان أو ثلاثة وتتعاون فيما بينها وتبدأ في وضع مسافة بينها وبين التبعية الأجنبية وسطوة املاءات صندوق النقد الدولي ومجلس الأمن الدولي المكشوفة الغايات ؟. ولماذا لا تجتمع بلدان العالم الثالث وتحتج وتصدر بيانًا دوليًا مدروسًا يؤكد حقوقها الوطنية والإنسانية ويفضح حقيقة السياسات الدولية التي زعزعت الأمن والاستقرار العالمي والإقليمي والمحلي في كل أطراف الأرض ما عدا أميركا الشمالية وغرب أوربا.

أليس تشرذم الخراف يغري الذئاب بافتراسها ؟.

لماذا وقع أطفال وناشئة اليوم كالعميان على منتجات الإعلام وتكنولوجيا

الاتصالات الإلكترونية، يستهلكون منتجاتها المسمومة، ويصدرون فضائهم المصورة على مواقع الاتصال الاجتماعي، ويزيدون مجتمعاتهم تفككًا وبلدانهم ضعفًا، وأنفسهم تحللاً.

إن الإنسان بحاجة لعائلته، وبحاجة لوطنه، وبحاجة لمحيطه الاجتماعي الثقافي؛ وكل هذه حاجات أساسية !.

وقد أثبتت مشاريع الهجرة فشل الاندماج والتكافؤ الإنساني. وما يزال المهاجرون غرباء في مواطنهم الجديدة رغم مرور عقود وأجيال على كثير منهم. وكل الحوافز الشكلية لم تملأ فراغ العائلة الأصلية والوطن الأول وحميمية الأهل.

يعيش المهاجرون حالة من الاغتراب والتفكك والتهميش، جيلاً بعد جيل، وكثيرون لم تعد الظروف تسمح بعودتهم لمجتمعاتهم الأصلية سيما بعد الانهيارات المجتمعية وآثار السياسات الدولية. فالسياسات التي كانت وراء تهجير الإنسان من وطنه، عملت على تعويق عودته لبلده، وفق ما يشبه سياسة الأرض المحروقة. وأوضاع كثير من بلدان التهجير مستمر في التردي والانحطاط، بينما تحول العنف والحرب إلى ظاهرة يومية في بلدان كثيرة، كما في العراق مثلاً.

إن قراءة الوضع العالمي غير معقدة، ولا صعبة الحل. المشاكل بسيطة، والحلول موجودة، ولكن البشر تغيروا. ثمة غياب للرجل القوي، غياب للنزاهة والوطنية والحنكة والقوة المجتمعة في شخص واحد. وفي كل بلد يسود عدد الخونة والجواسيس والانتهازيين على الأغلبية النائمة.

وعندما يظهر شخص وطني قوي شريف، يجتمع عليه بنو جلدته لكسره وتهميشه وتخوينه لخدمة الإخطبوط العالمي واستمرار الفساد والخراب المحلي والإقليمي. الأنانية هي الدين الإمبريالي الجديد، وكتابها المقدس هو المال !.

نحن لم نزرع البيد

نعم... نحن لم نزرع البيد...

مع أول قدم تضعها غرب البسفور... تبدأ أوربا...

أوربا تعرفها من طبيعتها الخضراء وغاباتها اللانهائية على امتداد النظر، على امتداد الشارع أو النهر، أو خط السكة الحديد. وعند النظر من الطائرة في ارتفاعها أو انخفاضها، تميز مساحاتها الخضراء من مساحاتها المائية.

كيف تجمع أوربا بين الخضرة والصناعة والتقدم. المدن والقرى والحدود هي مساحات خضراء وغابات ممتدة، وكأن شيئاً يكمل شيئاً... عندما رأيت أوربا للمرة الأولى؛ تذكرت الساعات الطويلة التي قضيتها متنقلاً بين بغداد والبصرة بالسيارة أو القطار، وامتداد صحارى النظر التي تندلع منها ألسنة الحرارة كسيوف من نار، وعندما تصمد عجلات السيارة في تلك الحرارة الجهنمية ونصل بسلام وبغير تأخير؛ نعتبر أنفسنا محظوظين.

الخضرة الوحيدة هي منطقة الأهوار التي تجللها رائحة نتانة وعطن خانقة بأثر المياه الساكنة ووخامة هواء المنطقة.

نقطتان لا يمكن مد خط بينهما. فكرت لماذا لا يقوم السكان أو الحكومة بتشجير الشوارع الخارجية والداخلية وحافات المدن والقرى وحدائق البيوت، إذا كان هذا حال بلاد الرافدين والبحيرات فما حال بلاد لا نهر لها؟!.

وأين هي المشكلة؟... هل هي في نقص الأيدي العاملة أو نقص الأموال النفطية؟. وهل زراعة شجرة أو عشب يحتاج تخصيصات مالية وخطة خمسية تصادق عليها الحكومة ومجلس النواب، ويوافق عليها مجلس الأمن الدولي.

في هذه النقطة تستحق بلدان الخليج أكثر من تحية، وهي صاحبة معجزة

زراعة صحراوية لا تقل عن معجزة الاقتصاد الياباني عقب الحرب العالمية الثانية. على مدى سنين طويلة ، روَّج الاتحاد الاشتراكي لإصلاح أراضي الصحراء المصرية، وتوزيع خريجي كليات الزراعة ومدهم بالإمكانات المادية.

فما كان من سياسة الانفتاح أيام السادات ومبارك غير بيع صحارى مصر بقروش زهيدة لرأسمالية الفساد وبناء مدن صناعية ومنتجعات سياحية للبيع والإيجار بالتقسيط المريح، دون أن تحل مشاكل مصر الاقتصادية والاجتماعية والعجز الدائم في ميزان المدفوعات ، ولا قللت من معدلات الهجرة المصرية والمساعدات الخارجية الممنوحة لها سنويًا.

زراعة الصحراء مفهوم اقتصادي إنتاجي يحتاج ثورة في العقلية وثورة ثقافية في المجتمع ، يحرِّر العرب من عقلية الغزو والنهب والنصب بمستوياته المختلفة ، وينقل الفرد العربي من ثقافة الاعتماد على الغالة والدولة والمساعدات الخارجية ، إلى ثقافة الاعتماد على الذات وتحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي الوطني الذي بدونه لا وجود ولا معنى للاستقلال السياسي وشعارات الوطنية.

يرتبط ظهور العرب تاريخيًا بلحظة الخروج من عدن والتخوف من انهيار سد مأرب حسب رواية ابن اسحق. وأهل اليمن عبر التاريخ هم أهل زراعة وصناعة وعمران وحكم ودول معروفة... فكيف تغيرت طباع المهاجرين منها من عقلية الإنتاج إلى عقلية الغزو والبداوة ؟. وهل كانت شبه جزيرة العرب صحراء من أصلها ام أنها تصحرت بفعل الإهمال ؟.

هذه المسألة بحاجة للدراسة والتأشير ، تمهيدًا لإنتاج ثقافة إنتاجية وعقلية إبداعية تزرع وتصنع ، بعدما صارت تحسب وتكتب بفعل الحداثة الغربية من القرن الماضي.

تشير سجلات الدولة الأشورية إلى قيام بدو الجنوب بالتخرص على حدودها.

ومند القرن الثالث قبل الميلاد بدأ استيطان قبائل عربية في جنوب الأناضول قرب منابع المياه العليا التي من آثارها منطقة ديار بكر التاريخية.

السؤال هو لماذا لم يجر استزراع شبه الجزيرة؟... واعتماد مكة البتراء على التجارة الوسيطة أو طرق مرور قوافل التجارة، بدل إنتاج التمور والحمضيات وتصدير المنتجات الزراعية؟. وأين مصير الحرف اليدوية المهنية وانتشار أهل اليمن شمالا وتبديهم؟.

ومن الأفكار التي راودتني خلال قراءتي للتاريخ، أما كان أجدر بالإسلام كحركة اجتماعية سياسية منظمة، توجيه الناس لقيم العمل والزراعة والأعمال الحرفية، بدل تمجيد قيم الكر والفر والغزو ونهب القوافل والمدن المطمئنة؟...

أعتقد أنه كان بالإمكان تغيير صورتنا البدوية الغزوية وعقلية القرصنة والاغتصاب، لنكون امتدادًا لحضارات سومر وبابل وعدن... لكانت صورة العرب ومكانتهم وتاريخهم عكس ما هي اليوم من عقلية الاحتراب الداخلي والتبعية الكاملة للأجنبي.

لقد خلق الله الإنسان ليعتني بالأرض ويزرعها وينشر الحياة والخضرة والسلام... فالإنسان ليس مجرد سائح في الحياة، يلتقط ما يجده في طريقه، وبأي طريقة أو ثمن !